

## الباب الخامس

### تفسير التاريخ والعلوم المساعدة

- مبحث تفسير التاريخ، صعوبته والخاتون فيه.
- الجغرافيا وتفسير التاريخ
- الاقتصاد و التاريخ
- علم النفس و التاريخ
- الأدب و التاريخ
- التفسير الدينى للتاريخ
- «إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون»
- الاجتماع و التاريخ
- الفلسفة و التاريخ
- علوم أخرى مساعدة.
- كلمة أخيرة .

obeykandi.com

تفسير التاريخ، هو أصعب مباحث هذا الكتاب، من حيث كون الخائضين فيه أكثر الباحثين لجاجاً، وأعمقهم خلافاً. وقد أخذ هذا المبحث على يد كثير من الفلاسفة والمتفلسفين أبعاداً ميتافيزيقية، ولأن هذا الكتاب مجرد مقدمة في علم التاريخ، لذا فقد ابتعدنا عن هذه الخلافات قدر الإمكان.<sup>(١)</sup>

والمقصود بتفسير التاريخ هو البحث عن العوامل المؤثرة في مسيرة الأحداث وغالباً ما تكون هذه العوامل أو الدوافع هي نفسها البواعث أو الدوافع التي تدفع الإنسان للحركة والتصرف والتي تصبغ عمله وتصرفه وحركته بسمات خاصة.

فالإنسان يتحرك أو يعمل بدافع إطعام نفسه وأهله، وبدافع التفوق وبدافع الزواج وبدافع السيطرة والتملك وبدافع الفكرة. وهو إزاء ذلك كله قد يكون كيساً لينا يتحايل، وقد يكون عنيفاً عدوانياً يهاجم. وهو في هذا كله قد يواجه بظروف ميسرة سهلة منها الظروف الجغرافية من ثراء البيئة وخصبها، وقد يواجه بظروف صعبة منها جفاف البيئة وقلة النساء وما إلى ذلك.

وهذه الدوافع الفردية، وتلك الظروف التي يواجهها الفرد، هي - فيما أرى - نفس بواعث الجماعات أو بواعثها. وبالتالي فهي نفسها العناصر الكامنة وراء حركة التاريخ، فالأحداث الإنسانية عبر التاريخ إما يحركها الباعث الاقتصادي (البحث عن الطعام وما إلى ذلك) أو باعث السيطرة والتملك (الاستعمار) وإن كان العامل الاقتصادي كامناً على نحو أو آخر في حركة الاستعمار، والعامل النفسي متمثلاً فيما يعترى بعض الزعماء أو الحكام من أمراض نفسية تصل إلى حد جنون العظمة أو عشق الدماء، فيوردون شعوبهم موارد التهلكة.

وعامل التفوق والهداية، وهذا يتجلي في حالة اعتناق الإنسان لأفكار مسيطرة تأخذ عقله وإبه فيخرج ليدعو الناس إليها أو ليفرضها عليهم فرضاً.

وهناك من ينظرون لتفسير التاريخ، لا على أنه بحث في العوامل المسيرة للأحداث، وإنما

---

(١) يمكن للباحث أو الطالب ذي الخلف بالدراسات الفلسفية القراءة في هذا المجال في كتب للفلسفة التاريخ، وأهل أشهر من خاص هذا المجال هو الفيلسوف الألماني هيجل.

تأمل في طبيعة تقابع هذه الأحداث والفكرة الكامنة وراء ذلك، وهم في محاولة فهم طبيعة هذا التطور يحاولون أن يوجهوا الأحداث بما يتفق مع فكرتهم هذه. فلما كان الصراع الطبقي فيما يرى الماركسيون هو طبيعة حركة التاريخ عبر الزمن، فلا بأس من تفجير هذا الصراع والإسراع بحدوثه .

## أ - الجغرافيا وتفسير التاريخ :

عادة يبدأ الباحث التاريخي بحثه بتوطئة جغرافية، يحدد فيها الحدود المكانية للمنطقة أو الدولة أو الكيان الذي يؤرخ له. وغالبا ما لا يكتفي الباحث بالحدود السياسية، وإنما يورد بعض اللامحات الجغرافية الخاصة بالمنطقة التي يؤرخ لها وعادة ما لا يقدم الباحث تفصيلات جغرافية شاملة، وإنما يذكر من الحقائق الجغرافية ما يخدم أغراض بحثه.

فالباحث في مجال التاريخ الأفريقي عادة ما يركز على الغطاء النباتي والمناخ والمجاري المائية لما في ذلك كله من أثر في حركة الانسان وسلوكه وتجمعاته وثقافته، بل إن هذه العوامل تلعب دوراً واضحاً في نتائج المعارك وتحركات الجيوش، بل وفي معتقدات الانسان، فالأرواح ادى الانسان الأفريقي الاستوائي غالبا ما تقطن الغابة.

وفي بعض مراحل التاريخ كان الجبل والبحر بل والنهر عائقا يحدد سير المعارك، وكثيرا ما ساعدت الظروف الجغرافية على احتفاظ بعض الأجناس بنقائنها الجنسي النسبي.

كما أن للمناخ دورا في صياغة أخلاق الناس إلى حد ما سواء بشكل مباشر أو غير مباشر بمعنى تأثيره على الغطاء النباتي، غابة وحشائش، وصحراء.

ومع كل هذا فإن التفسير الجغرافي للأحداث التاريخية كثيرا ما يوقع الباحث في أخطاء رهيبية، فالجهد الانساني والعلم كثيرا ما ينتصران على العوامل الجغرافية. ومن الأخطاء الخطيئة التي يوقع فيها التفسير الجغرافي ما ذكره صاعد الأندلسي إذ يقول :

« .. وأما الترك فإن فضيلتهم التي برعوا فيها هي معاناة الحروب ومعالجة آلتها، فهم أحق الناس بالفروسية وأبصرهم بالطنن والرماية، وبنون ذلك طبقة لم تكن بالعلوم، وهم أشبه بالبهائم منهم بالناس لأن من كان منهم موغلا في بلاد الشمال قافراط بعد الشمس عن مسامة رؤوسهم

برد هواعم، وكثف جلودهم. فصارت كذلك أمزجتهم باردة وأخلاقهم فجدة، فعظمت أبدانهم وابتضت ألوانهم وانسدلت شعورهم فعدموا وبذلك دقة الألفهام، وتقوب الخواطر وغلب عليهم الجهل والبلادة»<sup>(١)</sup>

أما روم لاننو فهو يفسر بعض المعتقدات العربية قبل الإسلام تفسيراً جغرافياً طريفاً إذ هو يربط بين تصور العربي للجن أو العفاريت وبين طبيعة المنطقة الصحراوية ومناخها الحار، ويقارن هذا التصور بتصور سكان أوروبا الشمالية حيث البرد والثلج، فيقول:

«إن تاريخ العرب القديم مزيج من الحقيقة والخيال، وذلك قدر مقدور يشمل التواريخ القديمة للشعوب جميعاً. والواقع أن الخرافات السكندنافية القديمة تتكشف عن شبه رائع بخرافات العرب الأقدمين. ولقد ساعد المناخ على دفع هذه الخرافات في الاتجاه الذي اتخذته. فبينما أدى «المؤثر الدافئ» في احتكاكه بالثلج والجليد إلى خلق عمالقة الصقيع السويدية، خلقت الجن عند العرب من نار خالصة لا يشويها دخان»<sup>(٢)</sup>

ويعلل باحث آخر أسباب تأخر الأفريقيين أو بمعنى آخر أسباب وجودهم على الحالة التي كانوا عليها حال الغزو الأوربي لبلادهم تعليلاً جغرافياً فيقول:

«وخلال فترة الاستعمار نشر الأوربيون آراء سيئة عن الجنس الأسود بعد أن خربوا ما وجدوه ببلاده من نول وحضارات، وزعم بعض كتابهم - ومنهم كثير من رجال الدين المسيحي - أن الجنس الأسود ليس من البشر، ولهذا يجوز صيده وبيعه والمتاجرة فيه. وذهب آخرون إلى أن روح الانسان الأسود سوادء أو أنه لا روح له أصلاً. وتمت بالفعل عمليات إبادة السود في بعض الأقاليم مثل جنوبي أفريقيا وزمبابوي التي سميت باسم استعماري من عتاة القائلين باستئلال الشعوب الضعيفة وهو سيسل رودس.

والحقيقة أن الجنس الأسود وجد في ظروف جغرافية قاسية: وجد في بلاد تغطيها الغابات الكثيفة وتشهد فيها الحرارة وتكثر الوحوش والحشرات والحيات مختلفة الأنواع وغيرها

(١) أبحاث الأمم لصاعد الأندلسي. من: مفت محمد الشرفاوي: أرب التاريخ عند العرب. بيروت، دار العودة، ١٩٧٠، ص ٢١٢ - ٢١٤.

(٢) لاننو، روم: الاسلام والعرب. ترجمة منير البعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٧، ط ٢، ص ١٢.

من الحشرات والعناكب السامة والحيوانات الكاسرة. وفي هذه البيئة تكثر الأمراض الفتاكة التي تنقلها الحشرات وتسببها أصناف لا حصر لها من الجراثيم التي تتكاثر وتتوطن في هذه الظروف الجغرافية المواتية لها. يضاف إلى ذلك أن حرارة الجو لا تشعر الإنسان بالحاجة إلى الملابس، ووفرة الطعام لا تحفز الذهن على النشاط، فلم يجد الإنسان صعوبة في إشباع غرائزه الأساسية، فطلت الغريزة غالبية نشيطة في حين لم يجد الذهن ما يدعو إلى تنشيطه وصقل ملكاته ومواهبه. ونظراً لكثرة أسباب الموت من أمراض ووحوش وهوام وحروب لا تنتهي بين القبائل نما في القلوب خوف من الموت، ولم يجد الإنسان سلاحاً لدفع هذا الموت الذي كان يحصد الناس بصورة قاسية ودائمة إلا السحر والكهانة لدفع الأرواح الشريرة. وسيطرت المخاوف والسحر والكهانة على ذهنه فلم يستطع الاستجابة لتحدي الحياة استجابة فعالة. وغلبت عليه نتيجة لذلك الطوطمية وعبادة الأوثان وإرضاء الأرواح الشريرة ورموزها من طواطم وأوثان نظم الانسان احتفالات يدور فيها رقص وتعزف موسيقى وتشعل نيران، وكل هذه وسائل لمحاربة الخوف وإشعار الانسان بشيء من الأمن الزائف.

وهذه كلها أشياء شغلت ذهن الإنسان الأسود في غاباته فلم تسنح له الفرصة ليسيير في طريق التقدم بنفس السرعة التي سار بها غيره من الأجناس، ولكنه - في المستوى والظروف التي كان يحيا فيها - أنشأ لنفسه إطاراً حضارياً متواضعاً فعلاً ولكنه كان وافياً بحاجاته، وتمكنت قبائمه من مقاومة الفناء.

وعندما عرف هذا الانسان الأسود حضارة أرقى مما عنده وهي حضارة الاسلام وارتفعت من قلبه المخاوف .. فتفتحت مواهبه وأنشأ الدولة المنظمة .....<sup>(١)</sup>

وقد يكون هذا صحيحاً والواقع أن علاقة البيئة بالانسان، تختلف عن علاقتها بالحيوان فالحيوان يتأثر بالبيئة الجغرافية تأثراً كاملاً فهو أحياناً يتلون بلونها، ويسمك جلده إنقاء بردها أو حرارتها .. وهو يؤثر فيها تأثيراً قليلاً فقد يعري غطاءها النباتي، أو يحفر أرضها جحوراً ومخابئ، وما إلى ذلك. أما الإنسان، بما أوتي من عقل، فإنه كثيراً ما يغير البيئة أو يتعامل معها تعامل الند مع الند، ففي التاريخ الحديث مثلاً ما عادت الجبال أو البحار عوائق حقيقية في

(١) مؤنس ، حسين : الحضارة . الكويت . المجلس الوطني للثقافة، ١٩٧٨ (١٣٩٨ هـ)

كثير من الحالات، فقد عبد الإنسان فوق الجبال طرقاً ومخر عباب البحر بالسفين، وقطعه بالطائرات.. بل لقد خرج خارج الغلاف الأرضي محترقا الجانبية. وأحيانا يعبأ الإنسان بأفكار قوية محرقة فتعطيه دافعا هو أقوى من الباخرة والقاطرة والطائرة، فقد انتشر الاسلام انتشارا مذهلا من المحيط إلى المحيط، فما عاقته على الجانب الآسيوي جبال إيران ولا عاقته في الجانب الأفريقي جبال أطلس ولا الصحراء الكبرى ولا كثافة الغابة، وعبر أوروبا فما عاقته جبال آسيا الصغرى ولا حالت نونه برودة.

### ٣ - الاقتصاد والتاريخ :

كثير من الهجرات الجماعية عبر التاريخ، لا يمكن تفسيرها إلا تفسيراً اقتصادياً. وتحركات القبائل العربية عبر رمال الجزيرة الواسعة كانت في كثير من الأحيان بحثاً عن الكلا والماء، والهجرات العربية في القرن التاسع عشر عبر البحر الأحمر كانت بقصد الاستقرار، واهتمام القوى الأوروبية هذه الأيام بمنطقتنا العربية يكمن خلفه النفط والموقع الاستراتيجي. وحركة الكشوف الجغرافية التي قادها البرتغاليون كان هدفها الأساسي الوصول لبضائع الهند، وكشف إفريقيا واستعمارها كان يكمن وراءه منتجات الغابة الإفريقية بما فيها من خشب وزيت نخيل، تلك الزيوت التي كانت تستخدم في تشحيم الآلات والتي كان التكالب عليها لا يقل عن التكالب على البترول هذه الأيام.

ومع هذا فإن الاغراق في التفسير الاقتصادي كثيرا ما يجنح بالباحث عن الطريق السليم ومن ذلك ما قاله أحد الباحثين :

« وفي عهد عثمان، الخليفة الثالث، اندفعت القوات العربية غربا وجنوبا بحثا عن الثروة، ففرضت الجزية على قرطاجة وأخضع بربر طرابلس الغرب، وبنى أول أسطول عربي، وبه استولى العرب على جزيرة قبرص وغزوا رودس، ودمر الاسطول البيزنطي عند الشاطئ الليقياني (معركة ذات الصواري) (١)».

والواقع أن العرب في عهد عثمان رضي الله عنه لم يكن ينقصهم الثروة. ومن الذين اهتموا بالبحث في التفسير الاقتصادي للتاريخ مالتوس (١٧٦٦ - ١٨٣٤) وريكاردو (١٧٧٢ - ١٨٢٣) وماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣).

(١) لانتو، روم: المرجع السابق، ص ٦٢.

### ٣ - علم النفس والتاريخ :

ركز بعض الباحثين على العواطف البشرية من حب وكره، ويقظة وحلم، في تفسير أحداث التاريخ، وركز باحثون آخرون على أن الزعماء أو القادة يدفعون الجماهير للحركة بإثارة عواطفهم. وقد وفق الباحثون أحيانا في تحليلاتهم هذه، وفشلوا فشلا ذريعا في أحيان أخرى. ومن هؤلاء الذين فشلوا في تحليلاتهم النفسية روم لاننو في قوله :

«وتتص الرواية على أن محمدا رأى فيما يراه النائم - وكان أنذاك في الأربعين من عمره - الملك جبريل يتحدث إليه .... وإنما حدثت هذه الرؤيا، ورؤى تلتها في غار قرب مكة حيث كان من دأبه أن يستغرق في التأمل...»<sup>(١)</sup>

فروم لاننو لم يجد تفسيراً للوحي إلا بالحلم. وهذا ضد منطلق التاريخ، فهل يحقق حالم ما حققه الرسول عليه السلام؟ وهل تنتشر دعاوي حالم هذا الانتشار المذهل في فترة وجيزة؟ والواقع أن المستشرقين قد اشبعوا الرسول المصطفي تحليلاً من وجهة نظرهم المريضة تلك، وكلها تحليلات خاطئة.

ومن التحليلات المصيبة ما ذكره المؤرخون عن تأثير مسلك جوزفين، زوجة نابليون الخائنة أو التي كان يشك فيها، على قرارته.

### ٤ - الأدب والتاريخ :

يريد المؤرخون للتاريخ أن يكون علماً وصفياً تحليلياً يتسم بالدقة الشديدة، ومن هنا فإن اعتماد المؤرخ على الأعمال الأدبية يجب أن يتسم بالتحفظ الشديد، وأن يتجنب ذكر الإمكان استخدام الأعمال الأدبية مرجعاً أو مصدراً لاستقراء الوقائع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، طالما كانت هناك مصادر أخرى أكثر دقة كالوثائق والمسكوكات والرنوك والآثار، ثم بعد ذلك تأتي مراجع المؤرخين وكتاباتهم مع تركيز على أولئك الذين عايشوا العصر الذي يؤرخون له، ثم تأتي الآداب والفنون.

فقصائد المديح في السلاطين والملوك لا تعني بالضرورة أنهم سلاطين أو ملوك عادلون،

(١) لاننو، روم : المرجع السابق . ص ٢٢ .

وقصائد التشاؤم والتي تبدي الحياة سوداء ليس فيها ما يستحق أن يحيا الإنسان من أجله، لا تدل على خواء الحياة الإجتماعية والثقافية والسياسية في عصر الشاعر بالضرورة، بقدر ما تدل على طبيعة الشاعر وتركيبه السيكولوجي. وقصائد الحماسة العالية النبيرة نضالا وجهاداً، لا تدل بالضرورة على روح قتالية عالية، بل إن قصائد الوطنية والبكاء على ذكري تراب الوطن عندما تكثر، وتشكل ظاهرة قد تعني تاريخياً. عكس ما ترويه تماما.

رئيس المقصود هنا ما كتبه باحثون عرب اتخذت كتاباتهم طابعاً أدبياً كالأغاني لأبي الفرج الأصفهاني<sup>(١)</sup> إذ الواقع أن كتاب الأغاني كتاب موسوعي اختلطت فيه الحقائق الأدبية بالحقائق التاريخية.

كما أن هذا أيضاً لا يعني إنكارنا لرجوع الباحث للأعمال الأدبية إنكاراً تاماً، بل إننا نوصي بالتحرز فقط، لكن إذا كانت هناك مصادر ومراجع تاريخية أخرى تؤكد ما يرويه الشاعر فلا بأس من الاستئناس بما قال.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن الأشعار الشعبية أو العامية أو النبطية تعتبر في بعض الحالات مصدراً من ومصادر التاريخ تزداد قيمتها إذا عدنا مصادر أخرى. لكن أحد عيوب هذا المصدر أن المؤلفين عزفوا عن توينه ردحا من الزمن لأنه ليس على اللفظ العربي. لكن كونه بغير الفصحي لا يقلل من قيمته كمصدر تاريخي في الواقع، فهو في هذه الحالة يكون أقرب لروح الشعوب. وأكثر تسجيلاً لعاداتهم وتقاليدهم ومسيرة حياتهم غنوا ورواحا..

ولقد ارتبطت حركة تنويع الشعر العامي والاحتفاء به في بعض الحالات بالحركة الهادفة إلى ضعفة الفصحي والقضاء على سطوتها، لكن القائمين على ذلك لم يكونوا جميعهم من نوى النوايا السيئة.

وفيما يتعلق بالشعر النبطي في جزيرة العرب فيعود أول ما زوي لنا منه إلى القرن السابع الهجري... ومنذ أواخر القرن الماضي كثر المهتمون به... وأول ما طبع منه ديوان صغير للشيخ قاسم بن ثاني سنة ١٣٢٨ هـ.. والشعر نبطي في الجزيرة هو أقرب الأشعار الدارجة في البلدان العربية إلى الشعر العربي الملتزم<sup>(٢)</sup>

(١) ولد أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني سنة ٢٥٦ هـ (٩٦٧ للميلاد) وكتابه الأغاني من الكتب الشهيرة طبع أكثر من طبعة أشهرها طبعة القاهرة في ٢١ جزءاً.

(٢) العثيمين، عبد الله الصالح: الشعر الشعبي مصدرنا لتاريخ نجد. في: مصادر تاريخ الجزيرة العربية، بحوث الندوة العالمية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، الرياض، جامعة الرياض ١٩٧٧.

وفي بعض الفترات التاريخية العربية يجد المؤرخ نفسه مضطراً للاعتماد اعتماداً كاملاً على الشعر كدراسة حالة العرب قبل الإسلام، ويذهب بعض الباحثين إلى نتيجة مؤداها أن ذكر الشاعر العربي لأسماء الأماكن أو الأطلال في مطلع قصيدته ليس المقصود منه البكاء على الطلل أو استنعاء التكري فحسب، وإنما هو يرسم خريطة طبوغرافية لهذه المواقع لهدف تعليمي ووطني إن جاز هذا التعبير فكلن الشاعر يريد أن يقول لأهله وأفراد قبيلته إن أردتم الذهاب لهذا المكان فطريقة كذا وهو بين الدخول فحومل مثلاً<sup>(١)</sup> - وأظن أن هذا الجاعث في ذكر الأماكن يعتبر من النتائج الجيدة في حدود علمي.

والواقع أن التاريخ كعلم بما وصل إليه من دقة وانضباط أصبح مصدراً لكثير من الأعمال الأدبية وليس العكس، فأصبحنا نسمع عن الرواية التاريخية والمسرح التاريخي بل والإشارات التاريخية في الشعر. والواقع أن الروائي أو كاتب المسرح يفعل في هذه الحالة شيئاً شبيهاً بما يفعله المؤرخ مع اختلاف في طبيعة عمل كل منهما فالروائي أو كاتب المسرح التاريخي، يبدأ بتجميع كل الروايات والأحداث والوقائع عن الحدث أو الشخصية التي يريد أن تكون موضوعاً لعمله الأدبي. وفي مرحلة تالية يبدأ في توثيقها والتأكد من صحتها حتى لا يبنى عمله الأدبي على خرافة أو رواية باطللة خاصة إذا كان مجال عمله الأدبي حدثاً دينياً أو شخصية دينية. ثم يختار من الأحداث أقربها لنفسه، وأكثرها خصوصية، وقدرة على استيعاب شخصياته، وأخيراً فهو عندما يشرع في صياغة عمله الأدبي يجد نفسه مضطراً لاستخدام خياله وتحليل علم النفس لأعطاء شخصياته بعداً درامياً إنسانياً قد لا يجده في كتب التاريخ ووثائقه، فالتاريخ - مثلاً - يظهر قائد الجيش قويا منضبطاً حازماً، لكن الكاتب المسرحي أو الروائي يظهره كذلك في جيشه وبين جنوده، ولكنه يتخيل هذا القائد القوي وديعاً ليتنا عند مداعبة طفله أو التودد لزوجته.. أو يصوره بيكي أحياناً على ذكرى حبيب مات .. وهكذا<sup>(٢)</sup>

والواقع أن المؤرخ لو التزم بالدقة التي يتطلبها العلم التاريخي، ثم أوتي بعد ذلك حظاً من

(١) الرهبي، عبدالله التامر : تحديد الشعراء العرب للمواقع الجغرافية. في : مصادر تاريخ الجزيرة العربية بحوث الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية. الرياض، جامعة الرياض (الملك سعود)، ١٣٩٧ (١٩٧٧م) ص ٣٦٣ - ٣٧٢.  
(٢) لمؤلف هذا الكتاب تجارب في كتابة الرواية والمسرحية التاريخية. ومن ذلك (جاريوزا في بيت الأرواح) عن تحول الأفرقيين للإسلام وهي مسرحية فازت بجائزة المجلس الوطني للثقافة في الكويت بمناسبة دخول القرن الخامس عشر الهجري ورواية (النق على الأبواب الشرقية) وقد فازت بإحدى جوائز المجلس الأعلى للثقافة في مصر.

خيال الأديب وفن الفنان فإنه يكون بذلك قد بلغ الغاية في البحث التاريخي.

على أن الاطلاع على الأعمال الأدبية نفسها يعد ضرورة لازمة عند الحديث عن الحياة الفكرية والثقافية، فلا يكفي هنا في الواقع أن يأخذ المؤرخ المعاصر، عن المؤرخين الآخرين فحسب، وإنما لابد له من الاطلاع على بعض الأعمال الأدبية والفكرية بنفسه، وهذه الأعمال لا تعد في الواقع مرجعا فحسب بل مصدرا أساسيا في هذه الحالة. إذ لا يكفي أن يقرأ الباحث في كتب التاريخ عن ازدهار الأدب في العصر العباسي بون أن يتنوق هو بنفسه طرفا من هذا الأدب، ولا يكفي الباحث عندما يكتب بحثا تاريخيا عن هيكل أن يقرأ في كتب التاريخ أنه منشئ الرواية أو رائدها في مصر والعالم العربي، ومؤلف كتاب حياة محمد، وإنما لابد للباحث من قراءة رواية زينب بنفسه وكتاب حياة محمد. ولا يكفي المؤرخ الذي يكتب عن دور طه حسين في الحركة التعليمية والأدبية في مصر أن يقرأ ما ذكره المؤرخون والباحثون عن ذلك وإنما لابد من قراءة كتب طه حسين كلها بنفسه. إن هذه الكتب تعتبر في هذه الحالة مصدرا أساسيا. والذي يكتب بحثا تاريخيا شاملا عن عصر من العصور أو حقبة من الحقب لابد أن يكون أحد فصول بحثه عن الحياة الأدبية والفكرية، والرجوع إلى الأعمال نفسها كما سبق يعد أمراً ضروريا لسبب رئيسي وهو أنه في بعض الأحيان يحكم مؤرخو العصر على أعمال تافهة بأنها قمة الروعة، لا لجنوح إلى الهوى وإنما لأن أنواق أهل العصر منحطة أو لتدهور اللغة والأدب، ومن هنا يجد الباحث في كتب المؤرخ الذي هو لسان عصره مدحا لهذه الأعمال وفي هذا دليل للمؤرخ على مستوى العصر الأدبي والفكري.

## ٥ - التفسير الديني للتاريخ :

وهذا النوع من التفسير شائع بين الباحثين اليهود، وهم يتخذون التوراة مصدرا أساسيا للتاريخ رغم ما اعترأها من تشويه وتبديل. الباحثون اليهود يرون أن البشر وقعوا في الأثام والشروع وأن الخطيئة شملتهم، ولم ينج من هذا إلا الشعب المختار والإنسان في التوراة مسير، أو بمعنى أدق فإن مسيرة التاريخ لا مناص منها، ولافكاك عنها، وأن التوراة هي المصدر الأساسي للأحداث التي روتها.

والحقيقة أن نص التوراة ظل حتى هذه الأيام موضوع مراجعة وتغيير، بل إن النص التوراتي ليس له ترجمة متفق عليها، وما زال التغيير والمراجعة دأبه ودأب المغيرين والمراجعين حتى هذه الأيام. ومن الضروري في هذه الحالة من حيث دقة المنهج التاريخي أن نرجع لمراجع مسيحية ويهودية.

### «إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون» (١)

نقرأ في مجلة التيم الصادرة في ٥ يوليوس سنة ١٩٨٢ ما يلي :

«منذ ألفين ومائتي سنة، قامت مجموعة من العلماء اليهود بلغ عددهم سبعين بترجمة الإنجيل (العهد القديم) من العبرية لليونانية، وكان ذلك في مدينة الإسكندرية وقد ظهرت ترجمتهم وأصبحت عملاً معروفاً في التاريخ يتسم بالعظمة. وقد عرف عملهم هذا باسم leptuagint وهي كلمة مشتقة من اللفظ اللاتيني والذي يعني الرقم سبعين لأن الذين ترجموا هذا العهد القديم كان عددهم سبعين، وبالنسبة لليهود التقليديين في القرون التي تلت ذلك، فإن الإنجيل (العهد القديم) قد ترجم أو صيغ من وجهة نظر يهودية. ولكن كانت هناك ترجمات تفنقت الصفة الرسمية، فقد كان هناك مترجمون أفراد يقومون بالترجمة بمفردهم وليس من خلال لجان من الباحثين أو الأكاديميين والآن (١٩٨٢) ولأول مرة منذ الترجمة اليهودية الأولى (منذ ٢٢٠٠) سنة تم تشكيل لجنة ترجمة يهودية لترجمة العهد القديم من العبرية إلى الإنجليزية وهذا الإنجيل اليهودي الجديد (وهو ترجمة ما يسميه المسيحيون العهد القديم) أصبح يسمى الكتاب المقدس Holy scriptures قد تم إنجازه في الشهر الماضي (يونية) وهو بذلك آخر الأناجيل المكتوبة بالإنجليزية حتى الآن وكانت آخر إعادة نظر في الإنجيل تلك التي تمت سنة ١٩٥٢ م ونشرها المجلس الوطني للكنائس "ANational Council of churches".

### ترجموا الأكواب Cupds بالنبيذ والضمور Wine :

وتمضي المجلة في تحقيقها فنقول «لقد اكتشف العلماء بعد مراجعة عديد من المصادر القديمة بأن الكلمة العبرية ممساح Mimsah في الآية ٢٢/٢٠ ترجمتها الأكواب Cups وإنها ترجمت خطأ بالضمور أو النبيذ Wine وعلى هذا فالترجمة القديمة خطأ.

(١) مقال اتخذ عنواناً له هذه الآية الكريمة، نشره المؤلف في جريدة السياسة الكويتية.

ملحوظة : الترجمة القديمة التي يتعبدون على أساسها منذ نزلت التوراة حتى يونية سنة ١٩٨٢ والتي يتعبد المسيحيون على أساسها منذ ضلوا بعد المسيح عليه السلام حتى ظهور هذه الترجمة في أوائل يونية سنة ١٩٨٢ أي الشهر الماضي.

الله واحد أحد Lord is one جعلوه وحيدا معزولا Lord alone :

وتمضي مجلة التيم - الموجودة الآن في مكتبات العالم - فتقول «اسمع، يا اسرائيل إن الرب الهنا واحد» أما الترجمة الجديدة فهي «اسمع يا اسرائيل إن الله هو الهنا وهو الرب الوحيد» ويضيف المترجمون أن الكلمات عندما كتبت في الأصل لم تشر إلى واحدية الله Not Gods Oneness ..

\* \* \*

ليس هناك تعليق على هذه المقتطفات التي لا أراها جديدة، ولا أراها آخر ولا أول ما وجه من تهم ونقد للنص التوراتي والانجيلي، وإنما ترجع التعلية في الإشارة لها لسببين، أولهما أن هذا النقد منشور في مجلة عامة، وهي مجلة التيم Time في عدد حديث يسهل الحصول عليه، وثانيهما أن الناشرين لهذا النقد هم من المتعمقين في الدراسات العبرية واليهودية والمسيحية.

ولعل هذا يجعل الذين يطالبون بترجمة القرآن والصلاة بنص قرآني مترجم أن يجدوا عبرة في ذلك !!

إنهم مختلفون في النص الأساسي .. مختلفون في المعاني الأساسية .. فهل هناك مسلمان مختلفان في نص القرآن ؟ قد يختلفان في المعاني والتفسير والتأويل، لكن الزمن في النهاية يساعد على رسوخ التفسير الصحيح وفقا لتطور العلم ومسار التاريخ وكم من آية كانت مجهولة المعنى ثم أتى العلم فألقى عليها ضوئا.

والقرآن الكريم ، كتب وقت نزوله وفي عهد الرسول (ص) الذي أنزل عليه . وبعد وقعة اليمامة نذب أبو بكر بناء علي اقتراح عمر زيدا بن ثابت لجمع القرآن وكتابته، إذ كان أحد كتاب الوحي ومن أوثق الحفاظ وبقيت هذه الصحف مرتبة تحت رعاية أبي بكر وعمر من بعده ثم أودعت بيت حفصة بنت عمر بعد موت أبيها ولما اتسعت ديار الإسلام وتفاوتت قراءة القرآن وفقا لاختلاف الألسنة جمع عثمان الصحابة واستشارهم في تجميع القرآن في مصحف واحد تُنسخ منه نسخ



ترسل للأمصار (البلاد) فأقروه على ذلك واستتسخوا من النسخة الموجودة عند حفصة نسخاً  
يعثوا لكل قطر نسخة عرفت باسمه .

والآن وعلى كثرة خلافات المسلمين .. وعلى كثرة تناحرهم .. وعلى كثرة مايقعون فيه من  
سفاهات فإن آيات القرآن الكريم لاخلاف عليها ولاسفه فيها ولاتناطح فيها عنزان .. الكل  
يتفق عليها .

يا لجلال القرآن .. يا لصدق الباري .. «إنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون» صدق الله  
عظيم<sup>(١)</sup>

\* \* \*

والواقع أن النصوص الدينية الإسلامية (قرآناً وحديثاً) لم تتكر دور الإنسان في مسار  
لأحداث، ومن هنا فإن المتصفح لمراجع التاريخ الإسلامي، يجد المؤرخين لم يجهدوا أنفسهم  
في البحث عن تفسير ديني، فهم يفسرون سقوط الدول ويفساد الإنسان (ظهر الفساد في  
لب والبحر بما كسبت أيدي الناس)

وهكذا دعا الإسلام المؤرخين إلى البحث عن الأسباب المرئية والواضحة للحوادث دون تلمس  
لذو الأسباب لدى جن خفي أو معجزة باهرة

وكانت حياة المصطفى عليه السلام واضحة جلية لاخوارق فيها ولاخرافات، فهو عليه السلام  
كان حريصاً على تأكيد بشريته حتى لايعبده الناس كما عبدوا ابن مريم وهو يمرض ويصح،  
يرضي ويفضب وهو «ابن امرأة كانت تكلل القيد بمكة» بل لقد هزم عندما لم يتبع المحاربون  
عه أسس الإستراتيجية وانتصر بإيمانه وإيمان المحاربين معه .

ومع هذا فالمسلمون يؤمنون إيماناً قاطعاً بأن كل شيء بإرادة الله ويذكر أحد المستشرقين  
أن عقيدة القضاء والقدر لم تؤثر تأثيراً سلباً في النشاط الفكري الإسلامي طيلة قرون عشرة  
زدهرت فيها الحياة الفكرية .. نعم عشرة قرون مضت قبل أن تعمل هذه العقيدة عملها السيء  
في نفوس المسلمين وفي الحد من نشاطهم. ثم يتسائل روزنتال اليس أحرى بنا إذن أن

(١) الشيخ، عبد الرحمن عبدالله: من الإجماز التاريخي للقران الكريم، مقال منشور في جريدة السياسة الكويتية.

نفترض أنه بعد أن اضمحل النشاط الفكري عند المسلمين بقي الركود العقلي في هذه العقيدة ملاذاً يستكين فيه ١٩<sup>(١)</sup>

ومع هذا الرأي المنصف نجد مؤرخين آخرين يفرغون التاريخ الإسلامي من كل معنى ومزية وهدف، ومن هؤلاء هيجل الذي يذكر في كتابه محاضرات عن تاريخ الفلسفة أن التاريخ الإسلامي معرض للتغيرات الدائمة ولا شيء غير ذلك الفتح والتوسع أبداً في استمرار ولا شيء ثابت وكلما ظهرت إحدى الموجات ارتفعت لكي تتخذ شكلاً ما اضمحلت وانحلت وهي ترتفع تون أن تفقد شفافيتها. يقصد أنه لا طعم لو لون لها<sup>(٢)</sup>

أما فون كريمر (بعد هيجل بخمسين سنة) فينكر أن العالم الإسلامي يبدو ساكناً على السطح إلى أن يتفجر فجأة من الهدوء التام على شكل قوة مخربة .

وبعد خمسين سنة أخرى إتي جولد تسيهر Gold Zihel لينكر أن القائلين بأن الإسلام قد انتهى إلى أن اتخذ شكلاً جامداً لا يقبل التغير مخطئون ذلك أن مجمل التاريخ الإسلامي في رأيه حرب مستمرة بين السنة والبدع .

## ٦ - الاجتماع والتاريخ :

وأقدم من أخذ بالتعليل الاجتماعي ابن خلدون في القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر الميلادي) واقد كانت نظرة ابن خلدون راقية للغاية . يقول ابن خلدون :

«أما بعد، فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتشهد إليه الركائب والرجال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقبال، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأولى، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف فيها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمرها الأرض حتى نادي بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها بقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق،

(١) دوزنتال . فرانكو : المرجع السابق . ص ١٧ .

(٢) دوزنتال . فرانكو : المرجع السابق . ص ١٧ .

وجدير بأن يعد في علومها وخليق، وأن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها، وسطروها في صفحات النفاثر وأودعوها، وخططها المتطوفون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها، واقتفي تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها، وأدوها إلينا كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها، فالتحقيق قليل، وطرف التتقيح في الغالب قليل، والغلط والهم نسيب للأخبار وخليق، والتقليد عريق في الأدميين وسليل، والتطفل على الفنون عريض وطويل، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل، والحق لا يقاوم سلطانه، والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه، والناقل إنما هو يمني وينقل، والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمقل، والعلم يجلو صفحات الصواب ويصقل.

هذا وقد نون الناس في الأخبار وأكثروا، وجمعوا تواريخ الأمم والدول في العالم وسطروا، والذين ذهبوا بفضل الشهرة والأمانة المعتبرة، وأفرغوا دواوين من قبلهم في صحفهم المتأخرة، هم قليلون لا يكابون يجاوزون عدد الأنام، ولا حركات العوامل، مثل ابن اسحق والطبري وابن الكلبي ومحمد بن عمر الواقدي وسيف ابن عمر الأسدي والمسعودي وغيرهم من المشاهير، المتميزين عن الجماهير، وإن كان في كتب المسعودي والواقدي من المطنن والمغمز ما هو معروف عند الإثبات، ومشهور بين الحفظة الثقات، إلا أن الكافة اختصتهم بقبول أخبارهم، واقتفاء سنتهم في التصنيف واتباع آثارهم، والناقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم، فلعمران طبائع في أحواله ترجع إليها الأخبار، وتحمل عليها الروايات والآثار، ثم إن أكثر التواريخ لهؤلاء عامة المناهج والمسالك، لعموم النواتين صدر الإسلام في الأفاق والممالك، وتناولها البعيد من الغايات في المآخذ والمآرك، ومن هؤلاء من استوعب ما قبل الملة من الدول والأمم، والأمر العمم، كالمسعودي ومن نحا مآناه.

وجاء من بعدهم من عدل عن الإطلاق إلى التقييد، ووقف في العموم والإحاطة عن الشلو البعيد، فقيد شوارد عصره، واستوعب أخبار أئفه وقطره، واقتصر على أحاديث دولته ومصره، كما فعل أبو حيان مؤرخ الأندلس والدولة الأموية بها، وابن الرقيق مؤرخ أفريقية والدول التي كانت بالقيروان.

ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مقلد ووليد الطبع والعقل أو متبلد ينسج على ذلك المنوال.

ويحتذى منه بالمثل، ويذهل عما أحالته الأيام من الأحوال، واستبدلت به من عوائد الأمم والأجيال، فيجلبون الأخبار عن النول، وحكايات في العصور الأول، صوراً قد تجردت عن موادها، وصفاحاً انتضيت من أعمادها، ومعارف تستنكر للجهل بطارفها وتلاذها، إنما هي حوادث لم تطم أصولها، وأنواع لم تعتبر أجناسها ولا تحققت فصولها، يكررون في موضوعاتهم الأخبار المتداولة بأعيانها أتباعاً لمن عني من المتقدمين بشئها، ويففلون أمر الأجيال الناشئة في ديوانها، بما أعوز عليهم من ترجمانها، فتستعجم صحتهم عن بيانها. ثم إذا تعرضوا لنكر الدولة نسقوا أخبارها نسقاً. محافظين على نقلها وهما أو صدقاً، لا يتعرضون لبدائتها، ولا يذكرون السبب الذي رفع من رأيتها، وأظهر من آيتها، ولا علة الوقوف عند غايتها فيبقى الناظر متطلعاً بعد إلى افتقاد أحوال مبادئ الدولة ومراتبها، مقتشاً عن أسباب تراحمها أو تعاقبها، باحثاً عن المقتنع في تباينها أو تناسبها، حسماً نذكر ذلك كله في مقدمة الكتاب.

ثم جاء آخرون بإفراط الاختصار، وذهبوا إلى الاكتفاء بأسماء الملوك، والاقتصار، مقطوعة عن الأنساب والأخبار، موضوعة عليها أعداد أيامهم بحروف الفجار، كما فعله ابن رشيقي في ميزان العمل، ومن اقتفى هذا الأثر من الهمل. وأيسر يعتبر لهؤلاء مقال، ولا يعد لهم ثبوت ولا انتقال. لما أذهبوا من الفوائد، وأخلوا بالمذاهب المعروفة للمؤرخين والعوائد.. الخ<sup>(١)</sup>

والتعليل التاريخي عند ابن خلدون يرتكز على حقيقة أساسية فيما يرى ابن خلدون وهي أن أحداث التاريخ نفسها هي التي يفسر بعضها بعضاً. فليس ثمة قوة خارجية تلوي رقبة التاريخ، فطراز المعيشة وأبعاد النشاط الإنساني تؤثر في مجرى الأحداث.

ويرى ابن خلدون أن العصبية لها دور كبير في تسيير حركة التاريخ، فقد تكون هذه العصبية، عصبية صلة عرقية، وقد تكون عصبية اتحاد جماعة في المصلحة.. ويرى ابن خلدون أن المجتمع كائن حي يبدأ طفلاً (مرحلة البداوة) ثم يتطور ويكتمل (مرحلة العمران). والظفر في المنازعات دوماً فيما يرى ابن خلدون يكون لأهل البداوة. ومن الواضح أن هذه النظرية لا تنطبق في كثير من تفاصيلها على التاريخ الحديث، حيث أصبح للعلم والتقدم التكنولوجي تأثير كبير في حسم المنازعات، مما يجعل أهل البداوة ينتصرون على من سواهم بقدر ما يحققون من علم وتكنولوجيا.

(١) ابن خلدون، عهد الرحمن: المقدمة، بيروت، ص ٢-٥.

ومن أسباب سقوط الدولة وانتهاء الحضارات فيما يرى ابن خلدون شيوع الترف والظلم والمجاهرة بالفسق والفجور ، ويذهب ابن خلدون إلى أن العرب بالذات لا يمكن حكمهم إلا بالدين أو باسم الدين، فهم - فيما يرى - أهل كبر وعصبيات ، والدين ينزع منهم ذلك .

## الفلسفة والتاريخ :

دخلت أحداث التاريخ في مجال تفكير الفلاسفة منذ وقت مبكر، لا من حيث بواعث وقوع هذه الأحداث أو أسبابها وإنما قام الفلاسفة كما دعتهم بالنظر لأحداث التاريخ نظرة فوقية أو كأنهم يطلون عليها من علٍ ليتبصروا كيفية مسارها، وهل الإنسان في تقدم مستمر، أم أنه ينكب نكوصاً على عقبيه، وهو حال انكبابه وقيامه أيعود القهقري، أما ينزع نفسه صوب التقدم. وراحوا يلاحظون العوامل المسيرة للتاريخ عامة لا بقصد تفسير التاريخ، وإنما بقصد الإسراع بمراحله وتطوراتها فيما قالوا .. وكان ثمة مجال آخر لمباحثهم، وهو هل تتحرك هذه الأحداث التاريخية بشكل مستقل عن إرادة الإنسان أم يفعلها، وهل هناك روح أو عقل كلي أو آلهة أو إله يتدخلون في مسار هذه الأحداث بصرف النظر عن الإرادة البشرية. ولم يكف الفلاسفة منذ القرن السادس قبل الميلاد حتى أيامنا هذه في القول والإعادة والترديد في كل هذه الموضوعات غير المحددة. ولعل هيجل يعد من أشهر هؤلاء، فلنعرض لبعض آرائه ببساطة شديدة قدر الإمكان.

## تفسير هيجل للتاريخ :

كل عصر أو حقبة زمنية - فيما يرى هيجل - تمثل وحدة مستقلة بكل أبعادها الدينية والفلسفية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، هذه الأبعاد التي يسميها هيجل الكل الحي أو المجموع الحي Living Totality وأن هذا الكل الحي الذي يمثل عصراً من العصور يحوي في طياته تناقضات تتعايش معاً فترة من الزمن، ثم تتولد عنها فكرة أو كل حي جديد يمثل عصراً جديداً يناقض العصر الذي قبله، وهذا العصر الجديد يتولد عنه عصر آخر له روح مغايرة .. وهكذا نواليك. وأن المحرك لذلك كله ليس إرادة الإنسان وإنما (الروح الكلية) أو (العقل الكلي) المسيطر على العالم. (١)

(١) صديقي ، عبد الحميد : تفسير التاريخ، ص ٦٢.

ويضرب هيجل لذلك أمثلة منها :

إن حضارات العالم - فيما يرى هيجل - ثلاث فقط، هي : حضارة العالم الشرقي وحضارة العالم الإغريقي الروماني، وحضارة العالم الجرمانى .. فالشرق عرف ويعرف أن شخصا واحدا فقط هو الحر والعالم الإغريقي الروماني يعرف أن بعض الناس أحرار والعالم الجرمانى يعرف أن كل الناس أحرار.

لذا فالشرق استبدادي، والحضارة الثانية ديمقراطية أرستقراطية والثالثة ملكية،<sup>(١)</sup>

ويوجه عام، فإن ما ذهب إليه هيجل لا يخلو من عمق فكر، لكن هذا لا يمنع أن كثيراً من الظل وعدم الصحة أصبح واضحا في نظرية هيجل عند تطبيقه على تطور التاريخ.

فإذا كانت نظرية هيجل تحتم أن يكون العالم أو البشر في تقدم مستمر، فإن أحداث التاريخ تؤكد وجود فترات من الركود أو النكوص أو الردة الحضارية.

### علوم أخرى مساعدة :

ذكرنا فيما سبق جملة علوم (الجغرافيا - الاقتصاد - علم النفس - الفلسفة - الدين) باعتبارها علوماً شاع استخدامها في تفسير الحدث التاريخي ولكن حقيقة الأمر أن كل العلوم على الأطلاق تعد علوماً مساعدة للتاريخ، وذلك لطبيعة التاريخ نفسه، كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. فالذي يعد بحثاً في تاريخ العلوم، لابد له من إلمامه بالعلم الذي يؤرخ له، فالباحث الذي يتناول تاريخ التعليم، عادة ما ينصح الأستاذ المشرف على بحثه أو رسالته بالقراءة أولاً في مجال التربية أو التعليم حتى تكون مصطلحات العلم وأفكاره الأساسية طوع فكره وقلمه. والباحث الذي يتناول تاريخ الزراعة<sup>(٢)</sup> لابد له من معرفة شيء عن علم الزراعة ومصطلحاته، والذي يكتب بحثاً في تاريخ الفنون، لا يشترط أن يكون مؤرخاً فقط وإنما دارساً للفن أو فنانياً، ولا يمكن كتابة تاريخ للأدب على يد أديب، ما لم يؤت حظاً من أساليب المؤرخين في البحث، كما لا يمكن للمؤرخ أن يكتب تاريخاً للأدب ما لم يؤت حظاً من أساليب الأدباء في

(٢) نفس المرجع . ص ٨٥.

(٣) من المؤرخين الكبار للزراعة في مصر في مصر محمد طي وما يليه أستاذي الدكتور أحمد أحمد الحته، واطه الوحيد الذي أعطى هذا الموضوع جل عنايته، والتاريخ للزراعة يستتبع تاريخاً للفلاح وأرضاه والحالة الانتصابية عامة.

التقصي. وأفضل من يكتب في تاريخ الطب والأطباء مؤرخون قرأوا شيئا عن الأمراض وطرائق علاجها، أو طبيب مؤرخ، فلا بد إذن أن ابن أبي أصيبعة مؤلف طبقات الأطباء كان طبيباً أو عالماً بالطب على نحو ما، ومؤرخو الفلسفة أو الحركة الفكرية، لا بد أن يكون لهم الملم بذلك كله، وما نحن نرى مؤرخا كابن خلدون، برع في علم الاجتماع، حتى أن علماء الاجتماع يكابون ينتزعونه من أحضان المؤرخين. ومؤرخو انتقال الحضارات والتأثيرات الحضارية لا بد لهم من جحلة ما لا بد منه معرفة علم اللغة أو الفيلولوجيا، لمعرفة أصول الكلمات وانتقالها من شعب إلى شعب، وما يعترى هذا الانتقال من تغيير في الكلمة. أيمن لباحث أن يحكم على التأثيرات العربية في شرق أفريقيا، ما لم يؤت شيئا من السواحيلية (لغة شرق القارة الأفريقية) وشيئا من العربية!؟

فكل العلوم إذن في خدمة التاريخ، وإنما تتوقف المسألة على اختلاف البحوث وتباين اتجاهاتها.

## كلمة أخيرة :

ذكرنا ارتباط التاريخ بالعلوم المختلفة تحت عناوين على شاكلة (الجغرافيا والتاريخ - الاقتصاد والتاريخ - الاجتماع والتاريخ .. الخ) وليس معنى هذا أن الحدث التاريخي لا يمكن تفسيره إلا من وجهة نظر واحدة، إما اقتصادية وإما اجتماعية .. الخ، فالحدث الواحد قد يفسر بأكثر من وجهة نظر واحدة، فخروج الجماعات مهاجرة قد يفسر تفسيراً جغرافياً واقتصادياً ودينياً على نحو مركب وفي نفس الوقت، إن الحدث الإنساني (التاريخي) معقد مركب بحيث يصعب تعليقه بسبب أو بوجهة نظر واحدة. فإذا تعثر رجل في حجر فوق فإن الحجر غالباً ليس السبب الوحيد، وإنما إلى جانب ذلك قد يكون الرجل ضعيف النظر، فضعف نظره يضاف إلى وجود الحجر كسبب لسقوطه، وقد يكون الرجل مريضاً دائماً مترنحاً، وقد يكون إلى جانب ذلك كله قد خرج من بيته مكتئباً لرسوب ابنه في الامتحان أو لبعث المشاكسات التي سببتها له زوجته .. وهكذا.

ها أنت ترى أن حدثاً بسيطاً اشتركت عوامل عدة في تفسيره وصياغته وتعليقه.